توليفة (الحياة – الموت – البعث) في أدب توفيق الحكيم

أ.م.د سلافة
صائب خضير
كلية التربية
/ ابن رشد

بين يدي البحث :-

لابد لنا قبل الخوض في موضوع بحثنا من أن نلم ولو بشيء يسير عن حياة أديبنا (توفيق الحكيم) ؛ لأن في هذه الإلمامة إنارة لكثير من جوانب البحث .

ولد الحكيم عام 1902 م. من أم تركية صارمة شديدة المحافظة على الدين ، ومن أب مصري يعمل وكيلا للنائب العام ، ثم قاضياً ، ثم مستشاراً ، في أسـرة ميسورة الحال حرصت على أن تنشـيء ابنها تنشئة علمية ليتبع خطوات والده في السلك القضائي ، الذي يتمتع بوجاهة حتى يومنا هذا في كل المجتمع العربي .وقد أدخلاه في مدرسة الحقوق في القاهرة ، ثم ارسلاه الى فرنسا لينال شهادة الليسانس ،ثم الدكتوراه ، وبعد عودته من باريس عمل وكيلاً للنائب العام في المحاكم المختلطة ، ثم انتقل بين الوظائف حتى استقر عام 1960 عضواً دائماً بدرجة وكيل وزارة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

كتب الحكيم أولى مسرحياته (الضيف الثقيل) عام 1918 ، وأولى رواياته (عودة الروح) عام 1933. ولم تكن له أية هواية خاصة ،

ولارياضة مفضلة ، ولم يعشق أو يغرم بأية فتاة طوال حياته ، بل امتاز بأنه ترك نفسه للادب والمسرح والصحافة ، وقد تزوج عام 1946 ، وأصبح أباً لولد وابنة (1) .

(توليفية الحياة – الموت – البعث في أدب توفيق الحكيم):-

تبدو هذه الثلاثية واضحة المعالم في أدب الحكيم ، وهي الخيط الرفيع الذي جمع أجزاء منظومته الأدبية بعضها الى بعض من (أهل الكهف) حتى (الرباط المقدس) ، فهو يعرض تفصيلات الحياة كما عاشها الإنسان (أي انسان) ثم يجعل الموت الحلقة الثانية ؛ ليكون البعث هو خاتمة المطاف ، وليس البعث الذي أعنيه هو عودة الروح بعد أن فارقت الجسد ، وانما عودة الحياة نفسها الى أن تكرر مرة أخرى كما يجب أن تكون ، وليس كما كانت في الحقيقة ، أو ما يشبهها .

فقد حاول الحكيم أن يكون مصلحاً يسهم بقدر ما في إصلاح مجتمعه ، بـل في اصلاح مايمكن إصلاحه من أمر الإنسانية ، فهو " ينتقل من الحيلـــة الى الدعابـــة الى السخرية الى المثالية ، وأخيراً الى الواقع ، وبهذا طمأن نزعته الفنية إزاء الذين لم يشاءوا أن يفهموا نقده البريء كأديب يرغب في الاصلاح لا لشهوة من الشهوات " (2) .

ويستعين هذا المصلح بطريقة خلق شخصيات لاحقائق ثابتة لها ،وإنها وهم زائف (3) . ففي مسرحية أهل الكهف كانت ملامح شخصياته مستمدة من قصة الكهف التي وقعت حقاً ، ولكنه نفخ فيها روحاً جديدة ، وحباها منطقاً جديداً ، فكأنما أراد أن يقول لنا :إذا كان لابد من البعث بعد الموت الذي أعقب الحياة ، فلابد من أن نقول ، ونفعل مايجب أن نقوله .وقد رأى د . اسماعيل أدهم أن فكرة المسرحية كانت معالجة فكرة الزمان ، وتأثير تغيره على الأشخاص الذين يرفضون ذلك ، ويرضون بالفرار منه الى زمانهم الذي تركهم مؤدياً دوره في الحياة ، واتمام مسيرتها . قال : " فنجد الاستاذ الحكيم يصوغ في المسرحية أمر هؤلاء الفتية ،وقد ردوا الى الحياة في زمن تأخر عن عصرهم ثلاثة قرون وبضع سنين ، فيريك شخصيات هؤلاء الفتية لا في أولئك القديسين الذين فروا بايمانهم ، فزادهم ربهم هدى ، وانما في صورة أخرى ، فقد تغير الزمان، ومن هنا جاءت

فكرة معالجة الزمان في المسرحية ، على إعتبار أنه خاصة من خصائص الحياة لاتدرك الابمقاييس العادات ،والأخلاق ، والبيئة تلك الحدود التي تندمج مع المقاييس الطبيعية للإنسان فتكون حياته، وتجدد كيانه . ولما كان أبطال المسرحية قد بعثوا ، فوجدوا الزمن قد تغير، ... فشعروا بما يفرق بينهم ، وبين الحياة الجديدة التي بعثوا لها ؛ لذا نجدهم يضطربون ويفرون الى الكهف ليموتوا " (4) .

وما كان هذا الموت إلا إتماماً للحلقة الثانية من التوليفة الثلاثية (الحياة – الموت – البعث) ، وبهذا يتركنا منتظرين البعث حتى نعرف ما الذي سيحصل بعد ذلك هل سيقبل هؤلاء الناس بالحياة الجديدة ليبدأوا مرة أخرى الحياة ، وفي هذا كله نجد الحكيم باحثاً عن التجديد ، ونجد فكرة (أهل الكهف) رمزاً للماضي . فالحكيم يبحث عن التغيير ، ويسعى إليه ،ولكن صبره لايسعفه لينتظر ، وكذلك هو يدرك تماماً أن عمره لايكفي ليحصل هذا التغيير أمامه عينيه؛ لذا يحاول العبث بعقارب الساعة ليعيد الزمان الى الوراء ليوضح المشكلة امام القاريء ،ثم ليبعث مرة اخرى بتلك العقارب ليسرع حركتها الى الإمام ؛ ليستشرق المستقبل تاركاً لوعي القاريء أن يدرك مدى التغيير الذي حصل في الزمان ، والمكان ، والشخصيات ،فقد يأتي هذا التغيير بعد ثلاثة قرون ، وربما يكون جيداً ، ولكنه قد لايرضي الناس الذي سيعيشون آنذاك ، وربما رمز بالقرون الثلاثة الى ثلاث دول ، أو حكومات ، أو مباديء عامة تحدد سياسة بلد ما تتغيير بتغير حكامه .

ولعلي أخالف د . اسماعيل أدهم عندما رأى : أن الحكيم من خلال عرضه فكرة المسرحية الأساسية أنكر فكرة البعث مستدلاً بذلك الى أنه لا يصل الى فكرة الخلوص بفكرته من حركات الأشخاص الذين رسمهم في مسرحية ، ولكنه يرسم الشخصيات لتفسير فكرته (5) ، ولا أجد في كلامه هذا إلا تأكيداً لفكرة البعث ، بل محاولة خلق الحياة وتسيرها على نحو مختلف بل إن د. اسماعيل أدهم ليرد نفسه بنفسه عندما قال : " وهذه الشخوص عادة معروفة النظائر في العالم الواقعي . ولكنها تبدو للعين في مادة أشف من مادتنا تروح وتجيء في جو أخف مما نعيش فيه ، فكأنما هي من مادة الأحلام نحسها بالحس الباطن ، وكأنها لاتتحرك بمحرك فيها من إرادتها ، بل تحركها قوة مستعلية عليها خارجة عنها ، هذه القوة قوة الزمان

بين مفرق العادات والأخلاق وتباين البيئات ؛ لهذا نجد شخوص المسرحية مسوقة من حيث لاتدري ، ولاطاقة لها على الوقوف والمغالبة"(6) . ولكني أوافق د. اسماعيل فيما ذهب إليه في أن هناك قوة خارجة عن الشخصيات تتحكم فيها ، وهي قوة التغيير ، وليست قوة الزمان ، فالزمان عند الحكيم يمضي – بل يجب عليه أن يمضي – بكل أبعاده ،ولاينظر أحداً ، ولكن ماضيه مسجل في أذهاننا ، وما يفعله الحكيم هو إعادته الى الوراء ، ثم تركه يمضي مرة أخرى وقد تشوه هذا التسجيل بشكل يزعج القاريء العادي ، ويمتع القاريء المتفحص . فإذا كانت مسرحية أهل الكهف تجسد البعث ؛ فإن مسـرحية شهرزاد ترسم لنا الحياة بكل أبعادها ، فشهرزاد هي الشهوة بكل ألوانها في نظر

(ملك) ،او(وزير) ،أو (عبد) . وهي الجمال الخالص الذي يعبد ولايعشق. ثم نجد الوزير الذي يمثل الحب في أقصى درجات التضحية والحرمان. اما شهريار فهو (الزمان) الذي جسده بشكل رجل تطور تدريجياً مبتدأ به من الطفولة والعبث ،ثم الجنون مروراً بالرجولة التي صاحبها الوعي بضياعه حيال الكون بكل تناقضاته وأسئلته التي تثور ثوراناً كلما حرك واحداً منها جلب معه الآخرى. وصولا الى الخيانة (وهي الحاضر) بكل الآمه ، هذه الخيانة التي بلغت أقصاها ، فنحن نشعر بها عندما نستنطق نتائجها في حال شهريار إذا أصبح ملقباً بجدارة بلقب (سفاح النساء) . والحق أن مسرحيته شهرزاد كانت تمثل الحياة التي يجب أن يحياها (الانسان) بكل أبعادها ،بعد أن يمتلك كل أجزائها . لذا يغدو العقل عند الحكيم وهو الملك (شهريار) هو الذي يفكر ، ويفكر حتى يصل الى المعرفة التي توصله بدورها الى حدود الحكمة ،وبهذا يصل الى حقيقة أن لا معرفة بعد المعرفة . ثم الوزير ، وهو القلب الذي يعشق ويعشق حتى يعرف أن لا حب بعد الحب . ثم العبد وهوالشهوة بكل عنفوانها أو الجسد الذي يجب ان تلبي رغباته والا صار عبداً آبقاً ، ويجب كذلك ان يسيطر عليه حتى لا يخرج عن سيطرة مولاه وكلهم ينظرون الى شهرزار بعيونهم ليروا فيها أنفسهم فهي كالجسد الواحد الذي تتلون فيه كل المظاهر، ويبدو أحدها واضحاً مسيطراً على غيره ، فهي مرة عاقلة مفكرة ، وأخرى عاشقة ، وثالثة شهوانية تسيطر عليها النزوات ، وبذلك يكون الحكيم قد أراد أن يقول : إن هذه هي الحياة

التي يجب أن يحياها المرء بكل ابعادها ،وضعها أمامنا بعد أن صاغها بشكل جديد .

ويبدو هذا الأمر جلياً للعيان من خلال الرموز التي يستنبط منها الحكيم مسرحياته .ففي (عودة الروح) استلهم اسطورة مقتل الإله أوزريس، وكيف طافت أخته أيزيس العالم لجمع أشلائه ، وانحنت عليه تنادي روحه علها تعود للجسد فيحيا " فالأشلاء الحية في الأسطورة هي بالرمز مصر المتقطعة الأوصال وعودة الروح الشرارة التي أوقدتها الثورة المصرية " (7) . فالحكيم يريد الاصلاح ، ولكنه لايقدر فقد عم الفساد واستشرى . لذا فضل أن يجعل الموت نهاية ، ثم هو نقطة بداية لبداية جديدة يرى فيها الأمل والصلاح .

ويرى د. اسماعيل أن " حياة توفيق الحكيم صراع بين الواقع الذي يحياه بحكم عمله ، والخيال الذي يحيا فيه بالاحلام بحكم طبيعة ،هذا يمكننا ان نقوله عن مدة عمله كنائب في الأرياف " (8) . والحقيقة ان الحكيم لم يكن يعيش في عالم الخيال ، وانما كان يحيا الحياة المؤلمة التي يراها حوله كل يوم ، وهو عندما بدأ بتأريخ أيامه في الأرياف ، فكتب يومياته أشعرنا منذ بدأها بالآلام والأحزان التي كانت تعتصره في كل لحظة ، وكل اليوميات كانت عرضاً للحياة تلك المرحلة الوسطى التي اختارها الحكيم ، وهو يقرر فيها أن الحياة الحقيقة ليست عندنا ، وانما هي في الخارج ، فنراه يرســـم لنا صورة رجل غسل ملابسه في الترعة ؛ فأحيل الى المحكمة ليحاسب فسأل القاضي عن سبب محاسبته ، ولم يستطع القاضي أن يجيب عن سؤاله فتولى الحكيم ذلك الأمر عنه قائلا : " فتردد القاضي وتفكر ولم يسطع جواباً ،ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لايملكون في تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافي من الانابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا الى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز " (9).

ويكننا أن نفهم نظرة الحكيم الى الحياة من خلال نظرته الى الانسان الذي هو شيء عظيم " إنه هو محور الكون ، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق الأعظم ، وأنه الكائن النوراني الروحاني الذي سوف يبعث " (10). فالذي قدر الله سبحانه وتعالى له أن يكون محرر الكون وملحوظاً بعناية الله جلّ جلاله ، وقد حباه العقل الذي به يحاسبه عند

البعث كان لزاماً أن يكون لهذا المخلوق نمط راقٍ من الحياة يحياها بما يتلاءم وهذا الرقي ، فإذا كان الحكيم يحدد أن الناس في الأرياف يعيشون كالسائمة ، وحدد هذا النوع من الحيوانات تاركاً تشبيههم بالنحل الذي يعيش حياة نظام مطرد في حياة ؛ فهو يعمل على إدخار طعامه وحماية نفسه ، وتحضير كل شيء يساعده في ان يتلاءم مع فصل الشتاء . أو تشبيه هؤلاء الناس بالنمل الذي يسير بقواعد خاصة في بناء حياته ، وتحضير طعامه وغيرهما .

ويتجلى لنا نظرة الحكيم الى الحياة في خواطر نفسه التي بثها في كتابه (الفنان) ؛ إذ نجده يوضح علاقته مع من اسماه (شيطان الفن) الذي خاطبه قائلاً : " ياشيطان الفن لقد منحتك كل شيء ... فإن ظفرت بساعة من ساعات الهناء فهي لك ، وان نمت فأنت ملك على عرش أحلامي ... وإن أفقت فأنت المالك لزمام أيامي ! ... ياشيطان الفن ! ... لقد أخذت مني كل شيء ... فماذا أعطيتني أنت ؟!

- أعطيتك لذة " الخلق" ! ...

تلك اللذة التي لايعرفها غيرُ الله " (11) .

لقد شرب الحكيم كأس الفن مترعة ، بل سقاها الآخرين لذيذة صافية، ولكنه بعد أن شرب أوشالها شعر أن الحالين قد تساوتا قبل إبداعه وبعده ، فأصبحت الألوان في نظرة كلها بيضاء ، وتعني مفهوماً واحداً هو أن الانسان مهما أبدع في عمله ، فلا يصل في ابداعه هذا الى المبدع الأوحد الله سبحانه وتعالى . ولكننا بعد أن وصلنا مفهوم اللون الابيض الذي صار متساوياً مع غيره عند الحكيم سنعمل على تحليله الى ألوان الطيف الشمسي ؛ لنؤكد حقيقة ابداع هذا المبدع آثر ان يحاول محاولة للتغيير فرأى انها خير من الركون الى السكون وترك الأمور على ماهي عليه . ولو نظرنا الى مسرحية سليمان الحكيم سنجد أنه اعاد الى الحياة عفريت كان حبس في قمقم لسنوات طويلة ، عاد بفضل جهل صياد ، فتحه له ، وجسد لنا الحكيم العودة بمشهد رائع تتجسد فيها فكرة (البعث) : " الصياد: صبراً علي ياسيدي ... أنت الذي ضاع من وقته في القمقم كل تلك الاعوام ... أتضن علي ... وأنا مخلصك ببعض لحظات ؟!

- العفريت : وما تصنع بها الآن هذه اللحظات ؟ ... لقد كانت في يدك حياة واسعة ، ماذا صنعت بها أيها الخامل . غير أن حبستها كلها في هذه الشبكة ؟ ...
- الصياد : حقاً ... لقد حبسني خمولي في هذه الشبكة ... ولكن طموحك ياسيدي قد حبسك في هذا القمقم ! ...
- العفريت : لأني أسرفت وتمردت .
- الصياد : وأنا أيضا أسرفت وتواكلت .
- العفريت : نعم : كلانا كان يستحق العقاب ... .

ولقد عوقبت أنا واستوفيت عقوبتي ... بقي عليك أنت أن توفي بجزائك... والجزاء الحق لك ، هو أن تؤخذ منك تلك الحياة التي لم تعرف كيف تصنع بها شيئاً مذكوراً " (12) .

فالقمقم كان رمزاً للقبر وهو بدوره يعني الموت ثم كانت الحياة كالخروج من القمقم اي الولادة لذا نجد ان العفريت قال بعد خروجه " لاإله الا الله ، سليمان نبي الله " (13) . وهكذا شارك فن الحكيم القصصي فنه المسرحي في هذه الخاصية أي جعل الحياة تجربة أولى يبدأ فيها الانسان مرحلة من مراحل حياته ، ثم تكون الخاتمة في الموت ، وبعدها تعاد التجربة مرة أخرى بصورة صحيحة كما يجب أن تكون ؛ وبهذا تكون هناك دائما فرصة جديدة للتغيير . قال في مقدمة مجموعته القصصيته (مدرسة المغفلين) : " بعض القصص التي يضمها هذا الكتاب قد بنى على حوادث وقعت بالفعل في مجتمعنا ، كما أن بعضها بني على مايحدث في الحياة الانسانية . وهناك فرق بين تصوير المجتمع وتصوير الحياة ، فمصور المجتمع لابد أن يتقيد بما رأى وشاهد وعرف ، إذا أراد أن يكون صادقاً ، فلا ينبغي له التعرض لبيئة أو طبقة لا يعرفها .

ملاحظة الواقع شرط من شروط التصوير الاجتماعي ... أما تصوير الحياة فأمر آخر ؛ لأن الحياة أشمل من الواقع . فالحياة الانسانية يدخل في نطاقها الواقع وغير الواقع ؛ لأن حياة الانسان – على خلاف حياة النبات والحيوان – لاتقف عند حد الوجود المادي ... بل هي تشمل الوجود في مختلف نواحيه ، المنظورة وغيرالمنظورة ، المادية والروحية " (14) . ولو قرأنا واحدة من قصص المجموعة وهي (كليو باترة وماك) لوجدنا أن المؤلف يبدأ في اخبارنا سراً لايعلمه أحد ، وهو يقرب الى يصل الى

المرحلة أن يكون لغزاً ، قال : " من أسرار الحرب الأخيرة التي لم يكشف بعد عنها النقاب ما أرويه الآن . وما من صحيفة في العالم نشرت هذه القصة الغريبة ، التي قد تصدم منطق الانسان في القرن العشرين . ولكن هذا لايمنع من أنها وقعت بالفعل وأرجو ألا يسائلني سائل عن مصدر علمي بها . فهذا ما أقسمت ألا أبوح به لأحد " (15). فقد حقق الحكيم لقاءً عجيباً مخترقاً به صفحات الزمان عندما إلتقى الجنرال ماك آرثر في عام 1944 في مقر قيادته في حربه ضد اليابان في جزيرة ما بالمحيط الباسيفيكي إلتقى بكليوباترا التي جاءت إليه متخطية الحقب والازمان على " سفينة من سفن العصور القديمة ، تتهادى فوق الأمواج مقتربة ... مؤخرتها من الذهب ،وشراعها من الأرجوان ، ومجاذيفها من الفضة ، تتحرك على نغم المزامير وفي مقصورتها امرأة مستلقية على الحرير كأ نها الهة ،يحرق بين يديها بخور وينتشر عبير، يلعب با لرؤوس، ويسحر النفوس ..... نزلت تلك المرأة من السفينة ، ومشت وكأنها تخطر في الهواء ... نحو مركز القيادة ، وهي تقول :

- " مارك أنطواني ".

ففرك الجنرال الأمريكي عينيه وهو يقول .

- " ماك آرثر " !

- نعم ، أقصد " ماك أرثر " ... إليك جئت ، وأنت الذي أريد ...

- من أنت ؟

- أنا كليوباترا " (16) .

وقد ظن القائد انها حيلة هوليودية أراد أحدهم أن يخدعه بها ولكن الملكة قالت له : " – قلت لك أنا كليوباترا ، ملكة مصر . جئت إليك من العالم الآخر . ولعلها أول مرة يحدث فيها ذلك ، منذ عرف الناس الحياة وعرفوا الموت . إن عصركم اليوم عصر تقع فيه أعاجيب ، ولكن الأعجوبة الكبرى هي تمكني من العودة الى الدنيا ... كيف تمكنت ؟ هذا ما لا شأن لك ولا لي به . وأنا لم أحضر لأطلعك على أسرار الموت والحياة ، ولكني أريد أن تصدقني " (17) .ولكن ما الذي دعا الحكيم الى أن يعيد هذه الملكة الى الحياة ، لقد أراد أن يقول لو أن كليوباترا عادت الى الحياة الأن في زماننا هذا لما كان لها سوى عمل واحد هو أن تكون مادة دعاية واعلان لشركات الزينة والجوارب والعطور والصابون ولتهافت عليها كبار

الحلاقين ودور النشر والمصورين ورجال الصناعة والمال والأعمال ... الخ؛ لتمنحهم اسمها ماركة لمنتجاتهم كما هو شأن أي امرأة تمتلك ما امتلكته من جمال وفتنة، وقد عرفت هي ذلك فقالت : لحبيبها عندما طلب منها ان يظهرها علناً أمام الناس بدلاً من الرضا بالبقاء متخفية بزي مجندة أمريكية تحت سلطته :

" – اسمي العظيم .. حقا سيكون كذلك ، يوم أراه منقوشاً بتوقيعي الكريم، على كل علبة بودرة وكل زجاجة كلونيا وأحمر شفاه ، وصبغة أظافر ...! هذا هو عصرك وبلدك .. وهذا هو حبك . وهذا هو كل مستقبلي ! وقامت غاضبة ، وفي عينيها دمعه ، أخفتها بأصبعها ، وانصرفت مسرعة"(18).

فالمرأة تجارة حتى لوامتلكت عقلاً حربياً ملكياً كما كان عقل هذه الملكة العظيمة ، وما يراه الكاتب في تلك الحضارة الغربية ليس سوى أصباغ وزينة لاتلبث أن تزول لتظهر حقيقية الخداع والزيف الغربي ، ولهذا فعندما أحست الملكة أن القائد العظيم مصر على أن يفضح أمرها ، آثرت الموت على الحياة وذهبت باحثة عن ثعبانها الشهير " لقد جربت الموت من عضته . انه لا يحدث تشنجاً ، ولا تمزقاً بل يغرق الانسان في شبه نعاس هادىء يتمنى من يقع فيه الا يصحو منـــه ... الى أن تضعف حواســـه ، ويموت موتاً لذيذاً ...غير أنها ذكرت وقتئذ أن " الاسبرين " يحدث اليوم عين الأثر ... فاضطجعت على فراشها وهي بملابس الضابطة ... وابتلعت أنبوبتين ... وعلم " ماك " بالحادث ... فدخل عليها مســرعاً ، فوجدها في النزع الأخير . وانحنى عليها متفجعاً ، وهمس في أذنها :

- فقالت وهي تحتضر : هل أخبرك الصحفي ؟
- كلا ياكليو
- ماك .. احفظ سري في قلبك وحده ! ...

وأسلمت الروح ... للمرة الثانية ... وربما للمرة الثالثة أو العاشرة ... أو المائة لا أحد يدري " (19).

وقد عمد الكاتب الى اعادة كليوباتراالى الحياة مرة اخرى في مسرحيته (لعبة الموت) التي استطاع من خلالها ان يظهر انتصار ارادة الحياة على عالم مؤرخ أصيب بالاشعاع الذري ، وقدر الاطباء ان مابقي له في الحياة لا يتعدى الشهور ؛ لذلك فهو يختار ان تكون معه في حياته الجديدة التي لاتزيد عن الشهور هذه الفتاة التي سميت على اسم الملكة

العظيمة التي شاهدتها مرة في السينما " ملكة عظيمة فوق عرش ، تحت قدميها رجال عظام ! امرأة رائعة !" (20).

فقد بعثت هذه الفتاة التي تعمل راقصة في ملهى ليلي الأمل في نفس هذا المؤرخ العالم المشهور عندما قالت له :

- كليوباترا : اسمع إني معتقدة كلَ الاعتقاد أنك لن تموت ....
- المؤرخ : لا تحاولي أن تضعي في رأسي أوهاما .... تكفي الاوهام التي صنعتها لنفسي .... من الخير أن تواجهي معي الواقع .... وتقولي لي : وداعا ، اذهب لمصيرك .... هكذا ودعت

كليوباترا يوليوس قيصر وهو ذاهب الى روما ليلقى حتفه .... !

- كليوباترا: إنها أخطأت .... ما كان يجب أن تتركه يذهب ....
- المؤرخ : لم تكن تستطيع .....
- كليوباترا: أما أنا فأستطيع .... وإن لم أستطع منعك فسأذهب معك ....لن أدعك تعيش وحدك مع الموت وجها لوجه .... إن الذي سيقتلك أشنع القتل هو إعتقادك أنك تحمل الموت في كيانك ، حيث تسير .... ما أفظع هذه الفكرة في رأس إنسان .... لقد جعلوك تعيش مع الموت ، كأنه شريك حياتك ..... تلعب معه وبه .... لأن العالم كله .... يلعب لعبة الموت ... ولكني لن أدعك تلعب لعبة الموت .... ستلعب مع الحياة ... لعبة الحياة " (21).

والحق أن الحكيم لا يعيد الى الحياة الشخصيات التاريخية المعروفة التي يدفع القارئ بها الى استلهام موقف ما أو استحضار فكرة ما في عقله ، وإنما قد يعيد الى الحياة أشخاصا عاديين فيحاول أن يحدد الفكرة التي أراد قولها لنا من خلال إعادتهم ولكن بشكل أكثر وضوحا وأكثر إفهاما ،كما حصل في مسرحية (الطعام لكل فم) ، وفكرتها تتلخص في أن حمدي وزوجه سميرة يعيشان في شقة تقع في الطابق الذي تحت الطابق الذي فيه شقة تسكنها الست عطيات التي تغسل بلاط شقتها دائما بالماء والصابون ، مما ولد نشعا كبيرا على الحائط ، وعندما جف النشع ظهرت رسوم وظلال عليه كانت تمثل الحياة اليومية لأناس عاشوا في مكان وزمان ، غير المكان والزمان الذي يعيش فيه سميرة وحمدي ، وهؤلاء الاشخاص هم : نادية وأخوها طارق ،وأمهما التي تتهمها نادية بقتل والدهما بمساعدة ابن عمها وعشيقها الدكتور ممدوح ، ويقوم الزوجان بمراقبة حياة هذه الاسرة عن

كثب (22) حتى يحدث يوماً تقشر على الحائط ويخاف الزوجان من تثبيت هذه القشرة ؛ لان ذلك قد يحدث ضرراً كبيراً على الحائط فتزول معه المشاهد التي يريانها عن حياة تلك الأسرة (23) . ولكن بعد أيام تحدث الكارثة ويتقشر سطح الحائط كله وينجرف ولا يبقى عليه شيء لا خط ، ولا ظل ولاشيء على الاطلاق . وتصف سميرة الحالة قائلة : " – سميرة : انظر ياحمدي !... انظر ... !

- حمدي : ماذا ؟ ...
- سميرة : أسفل الحائط ... على الأرض ... كومة تراب ، كومة قشر مفتت ...
- حمدي : هل كل مابقي ... ياللكارثة ! ... كل مابقي ... " (24) .

ويعمل الزوجان على اعادة الحياة الى الاسرة بمحاولة اعادة النشع الى الحائط ، فيعرضان على المرأة الجارة غسل شقتها يومياً ولكن بلا قائدة ، فلا يعيد ذلك الرسوم ، ولا الظلال ولا يعيد للأسرة الحياة التي فقدتها . فكومة التراب هي كل ما بقى من الانسان بعد موته وقد ذكر ذلك الحكيم على لسان بطليه قائلاً :

"- حمدي : أنا لا أستطيع تصور انعدامهم النهائي ...
- سميرة : ولا أنا .
- حمدي : لايمكن أن يكونوا هم كل ما سقط هنا ... في أسفل الحائط ... هذا الكوم من التراب ... من القشر المفتت ... لايمكن ... لايمكن ...
- سميرة : فعلا ... لايمكن ... لايمكن في هذا الكوم أن تنتهي نادية ... وثقافتها ... وعزفها على البيانو ... ولحنه الجميل .
- حمدي : وطارق ومشروعه ... وعلمه ونبوغه ... مامصير هذا المشروع اذن ... انه كان سيغير مصير العالم ...
- سميرة : لابد أن يعودوا ... لابد ... لابد ... ." (25) .

فلم يجدوا لذلك سبيلا سوى غسل شقة الجارة كل يوم ودعك الارضية بالماء والصابون ،
لتغرق شقتهم بالماء ويبتل الحائط فتعود الرسوم ، ولكن بلا فائدة فهي لاتعود(26) . ويتجهان الى العلم لفحص التراب المفتت تحت عدسة المكبر(المكروسكوب) (27) . ولكن بلا فائدة لذا يحاول حمدي ان يتقمص شخصية طارق (عالم الذرة) ويعيش بعقله وفي الوقت نفسه تتقمص سميرة شخصية

نادية من خلال عزف على البيانو المقطوعة الموسيقية على البيانوتلك المقطوعة التي كانت تعزفها نادية، محاولين في هذا كله حل مشكلة العبودية في العالم ، فيجدان الطعام هو الحرية وان الشعب الذي يشبع من الطعام لايستعبده احد (28).

فالموت يقف حاجزاً بين حياتين يمنح الحكيم أبطاله حق الاختيار بينهما ، وهو في أثناء ذلك يجعلهم يرون الفرق بين الاثنتين واضحاً ،ففي الحوار بين (براكسا وهيرونيموس) بطلي مسرحية براكسا أو مشكلة الحكم ، نجد هذين البطلين اللذين اصطرعا على الحكم ، أيهما أفضل المرأة (براكسا) أو الرجل (هيرونيموس) قال الحكيم على لسانيهما :

" – براكسا : نعم . إني أعطيت الشعب كلمات ، لكني لم آخذ منه شيئاً أما أنت فقد أخذت حريته وغلاله وأعطيته كلمات .

- هيرونيموس : إن الظفر والانتصار ليسا كلمات .
- براكسا : وإن لم تظفر وتنتصر ؟
- هيرنيموس : فإني أموت .
- براكسا : ويموت الشعب معك .
- هيرنيموس : إن كان قدر للشعب أن يموت ، فخير له أن يموت بيد البطولة من أن يموت بيد الضعف والفوضى .
- براكسا : وهل خيرت الشعب بين الميتتين ؟
- هيرنيموس : إنه لن يتردد في الاختيار.
- براكسا : أتحسب الشعب راضياً عن حكمك !
- هيرنيموس " ساخراً " : لا . إنه كان راضياً عن عهدك أنت "(29).

فالموت حال يختارها الانسان حتى يستطيع أن يتخلص مما حاق به في حياته الأولى من أثقال وآلام ، ليبدأ بعدها مرحلة جديدة أو (حياة جديدة) تختلف عما سبق له ، فلو قرأنا على سبيل تمثيلية (دقت الساعة) ، سنجد البطل محمود ، وهو مضطجع ينتظر الموت بعد أعراض مرضية ألمت به منذ أسبوع ، وزوجه حميدة تجلس معه محاولة أن تهون عليه ما يقاسيه من آلام ، فجأة يخبرها الخادم أن محصل النور بالباب يروم الدخول لغرض قطع النور لانهم كما يزعم لم يدفعوا منذ شهور قال الحكيم :

" – حميدة : (تنهض) سأذهب لأرى الموضوع ..

(ما تكاد حميدة تخطو نحو الباب .. حتى يظهر المحصل على العتبة حاملا حقيبة سوداء من الجلد تحت إبطه ...).

- المحصل : (بأدب) لامؤاخذة !
- حميدة : (منفجرة) شيء عجيب ياحضرة الفاضل ... أهذه طريقة تدخل بها بيوت الناس ؟ ! ...
- المحصل : أظن أنها طريقة لبقة للغاية ! ...
- حميدة : البك مريض كما ترى "(30) .

فالموت يدخل بغته وعنوة ولا يردعه باب أو شخص إن أراد الدخول الى أحد ، وحتى المرأة المنفجرة التي تصرخ وتولول لا تردع هذا القادم المخيف . وليوضح الصورة أكثر يصف لنا الموت وعمله قائلا :

" – محمود : أتشبه نفسك بالموت ؟ ! .

- المحصل : ولم لا ؟ هل الموت بغيض الى هذا الحد ؟ ! ...
- محمود : (وهو يحملق فيه وقد ارتعد قليلا) بالعكس ... بالعكس ... إني شخصياً أراه لبقاً مهذباً ... لايقوم الا بواجب عمله المحتم عليه ... بكل أمانه ودقة وإخلاص .
- المحصل : ثق أنه ليس أكثر من موظف ! ...
- محمود : (في رجفة) بدون شك ! ...
- المحصل : موظف يدعو حاله الى الرثاء ... تصور ياسيدي أنه في عمل متصل بالليل والنهار ... في الشرق والغرب ... في السلم والحرب ... اينما ذهبت ... وحيثما كنت ... تجده مشغولاً جاداً مسرعاً الى مواعيده ...
- متأبطاً محفظته السوداء التي تشبه محفظة المحصل ... لا راحة له ... فلا إجازه مرضية ، ولا عطلة رسمية ... ولا علاوة له ولا ترقية ... فهو دائما في وظيفية ... بدرجته .. ما يمسي فيه يصبح فيه ... من سنين وسنين ... لايشكو ولا يتذمر ولا يضرب ... إنه أقدم الموظفين المنسبين ... ومع ذلك لايذكر اسمه الا باللعنة ... ولا ينظر إليه أحد بعين شفقة ولا رحمة.
- محمود : (بلهجة تأثر) مسكين ! ...
- المحصل : بذمتك ياسيدي اليك ... وأنا راض بذمتك ... ألا تراه يستحق العطف ؟ !

- محمود : (بتأثر) من صميم القلب ...
- المحصل : أشكرك !
- محمود : (متنبهاً) تشكرني ؟ !
- المحصل : (يستدرك) بالنيابة عنه فهو على كلّ محصل ... مثلي ... أنا أقوم بتحصيل اشتراكات وفحص عدادات ... وهو يقوم بتحصيل أرواح ... مع العلم بأني أستطيع التهاون قليلا أو الغلط أوالكسل ... فأتأخر يوماً أو أتقدم عن الميعاد ... أما هو المسكين فلا يستطيع ان يتقدم عن مواعيده دقيقية أو يتأخر ... فهو قد حدد لك الرابعة ... فما أن تدق الساعة الرابعة حتى يصل ...
- محمود : (مقاطعاً مرتجعاً) الرابعة ! " (31) .

وعندما يجد محمود نفسه عند النهاية يحاول جاهداً اصلاح مافات ولعل زوجه تستحق منه هذه الالتفاتة المتأخرة .

"- محمود : اقتربي ياحميدة ، لقد طلبتك لأفضي لك بسر .
- حميدة : سر ! ! أي سر ! ! ...
- محمود : سر أخفيته عنك مدى ثلاثة عشر عاماً ... يجب أن أبوح لك به الان .... وأنا في حضرة الموت .
- (تنظر الى المحصل وتهمس لزوجها) تقول أمامه ؟!
- محمود : نعم ... لا بأس من ذلك ... ان حضوره هو الذي ذكرني بواجب الافضاء إليك ... "(32).

والسر هو زواجه بامرأة أخرى ، كانت أرملة شخص يدير واحداً من محلاته في منطقة الغورية مات عنها زوجها وتركها بعده بلا عائل لها ولا معين ، وليس في يدها صناعة تحسنها ... وقد حفظ ذكرى زوجها فيها فتزوجها صوناً لها ولكننا نبقى مع هذا الزوج المحتضر حتى تستدعي زوجه ابنها الوحيد لرؤية والده قبيل موته من غير أن تخبره بمرضها ، ولكن ما يحصل أن البواب يخبره بمرض (البك) محمود فيقفز على السلم ويسقط ويصطدم رأسه ويتحطم على سن الرخام ، وعندئذٍ نفهم أن المحصل كان هو الموت عينه إذ اختلط الاسم عليه، فهو قادم ليأخذ الابن (محمود) لا الاب (محمود) وكلاهما يحمل الاسم نفسه فيقول :

"- المحصل : أنا آسف ... لا تؤاخذني ... لاأدري كيف أقدم لك اعتذاري عن هذا الخطأ ... ولكنه النظر الذي ضعف من العمل الذي زاد ... قرأت الاسم ولم أحسن قراءة السن " (33)

وعندها يبدأ الأب الحياة الجديدة التي كتبت له :

"- محمود : (يفطن فجأة من ذهوله ويصحح) حمادة ...ابني ... يموت في نضرة شبابه ... مستحيل ... مستحيل .. اني واهم ... اني احلم... أيها المحصل ... أيها الطبيب ... أنا المقصود ... أنا المقصود ... فيقفز من فراشه ليركض نحو الخارج ولكن ... ساعة الحائط تدق دقاتها الأربع ... فيقف مذعوراً ... ولا تلبث أن تنطلق في الخارج صيحة حميدة صارخة : مات وحيدي ! ... (34) ".

فقد بدأت حياة جديدة محمود (الاب) فيها رجل آخر متزوج من امرأتين ، ليس عنده أولاد منهما معاً ، مطمئن على صحته وفي كل هذا وذاك هو رجل وإنسان جديد لايعلم مقدار حياته الجديدة ، ولا مدتها ،وما سيصادفه فيها من أحداث واشخاص وأمور . وهكذا يعمد الحكيم الى الأشياء الموجودة سابقاً في حياتنا ليمنحها روحاً جديدة ، ومفهوماً آخر مختلفاً عما عليه سابقاً . ونرى مصداق هذا واضحاً في رأيه في موضوع (الخلق الذي يبتكر) قال مجيباً عن سؤال أفترضيه في أول كلامه مفاده :

ما الخلق في الادب ؟ وما الابتكار الادبي ؟ :

" ليس الابتكار في الادب والفن أن تطرق موضوعاً لم يسبقك إليه سابق ، ولا أن تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك ... إنما الابتكار الأدبي والفني ، وهو أن تتناول الفكرة التي قد تكون مألوفة للناس ،فتسكب فيها من أدبك وفنك ما يجعلها تنقلب خلقا جديداً يبهر العين ويدهش العقل ... أو أن تعالج الموضوع الذي كاد يبلى بين أصابع السابقين ، فإذا هو يضيء بين يديك بروح من عندك "(35) .

فهو يعمل على توليف المتضادات في مكان واحد بيسر وسهولة ، لانه فنه ليس قطعة منقولة عند الحياة ، وانما هو محض خيال ، قال : " إني اليوم أقيم مسرحي داخل الذهن ، وأجعل الممثلين أفكاراً تتحرك في المطلق من المعاني ، مرتدية أثواب الرموز !... "(36).

لقد عرض الحكيم أسئلة أراد أن يثير بها ذهن المتلقي الفطن وهو يدخل منظومة الحكيم الفنية فالقراء أمام هذا الكم الهائل من الافكار ماذا "

يشعرون أمام صراع بين الإنسان والزمن ، وبين الإنسان والمكان ، وبين الإنسان وملكاته ؟ ... هذه الأشياء المبهمة والأفكار الغامضة أتصلح لهز المشاعر بقدر ماتصلح لفتق الأذهان ؟ " (37) . فالإنسان أمام صراع يدخله مع القدر ، ومع نفسه منذ أن يولد بل هو في صراع مع الحياة ، والحكيم يرى أنه مهما كانت نتيجة الصراع فهو أمر غير مهم ؛ لأن أوجد شيئاً آخر يضعه أمام من فاتته فرصة ما ، أن يعيد استغلالها مرة أخرى ، ولذلك هناك فرصة أخرى أمام من لا يزال يخوض غمرة الصراع ، إنه قادر على أن يحدد النتيجة لصالحه ، وهكذا لا يفقد الإنسان الأمل في الحياة ، ويبقى يعيش المستقبل ؛ لانه يشارك في صنعه.

وأخالف بعض النقاد الرأي القائل في أن الحكيم شغل منذ بواكير حياته الفنية بفكرة الموت والبعث ، أو نظرية الخلود التي ظلت محوراً رئيساً من المحاور الفكرية التي رافقه في وقت مبكر فقط ؛ بل إنه انشغل بقضية الموت والبعث على طول تاريخه الفني من (أهل الكهف) الى (ياطالع الشجرة) مروراً بـ (إيزيس) وانه عالجها في البناء الدرامي ، وفي البناء الروائي (38) . وأجـد أن توفيق الحكيم عالج مسألة تهم البشر منذ الخليقة وحتى وقتنا الحاضر هذا ، وهي : لو فات الزمان هل هذا يعني أن الفرصة قد فاتت ، وان الانسان رهين مدة حياته سواء طالت أو قصرت ، والحق أن الحكيم يرى أن الانسان هو ركن من أركان الصراع ، في مقابل الزمان متمثلاً بالموت ؛لذا يمكنه ان يعوض ما فات، ليس لانه شخص بعينه(فرد محدد ومعروف) ، وانما لانه طرف من اطراف الصراع فما فاته اليوم قد يعوضه غداً ، وبشخص فرد آخر فلو قرأنا (الصفقة) لوجدنا هذا الصراع بين الحياة والموت في فكره قائماً جلياً ، ففيها نجد أن المزارعين يجمعون مبلغاً من المال لشراء الارض من الاقطاعي الذي يستعبدهم ، فمنهم من تبرع برضا نفس ، ومنهم من أجبر على هذا ، ومن هؤلاء جدة تهامي :

" – تهامي : إن شاء الله عمرك يطول ، وفلوسك ندبرها ... لكن الأرض ياسي مطلوبها الساعة ، ولايمكن تتأخر ، وأسألي المعلم شنودة .

- العجوز : آخرتي أولى من أرضك .. آخرتي أهم من كل حاجة ... آخرتي ... قاعدة من زمان أجهز لآخرتي ، وتقوم أنت يابني تضيع عليّ آخرتي خرجتي ؟ !

- تهامي : فكرك كله في الموت . لكن فكرنا في حياتنا ! يعجبك حرمان ابنك وابن بنتك من نصيبه في الأرض ؟ وتضيع عليه الصفقة ؟ ... تضيع عليه الفرصة من بين جميع الأهالي .
- العجوز : وأنت يعجبك بابني تقل مقام ستك في آخر أيامها ،وتحرمها من كفنها ودفنها ، وتشمت فيها الأعادي ، وتضحك عليها الكبير والصغير من أهل البلد ؟ !
- تهامي : الميت مايحس بضحك ولا بشماتة ، ولكن الحي ياستي ... الحي ... ! " (39) .

فالانسان الحي بنظر الحكيم ليس من يعيش ويأكل ويشرب وانما الحي من يفهم ما يدور حوله ، وهو الذي تهمه شماتةالاخرين وضحكهم منه ، أما الميت حقيقة فهو من انتهى عنده كل شيء ، وانتهت بهذا حياته. ومصداق ذلك كله قول الحكيم " فالفكر في كل ألوانه من أدب وقصص وفن يجب في نظره أن يعنى بالبشرية ،وما دامت البشرية متصلة بالسياسة والمجتمع ، فلابد للمفكر أو الأديب أو الفنان أن يعيش عصره كله ، ومجتمعه كله بما فيه من شؤون سياسية واجتماعية " (40).

وإذا كان الحكيم قد اعطى هذه الفرصة للإنسان ، فقد منحها للجماد أيضا وما جالاتيا الاامرأة من العاج وقع بجماليون في حبها ، فهو يناجيها ويدللها ويناغيها ، ويدعوها زوجه ، ويغمزها بكل ماتصبو إليه المرأة من ترف ! (41) . فإذا هو يمنح هذا التمثال الحياة عن طريق معجزة فقد هبطت من عليائها مركبة فينوس تجرها بجعتان ، وهي فيها مع أبولون ، وقد أمسك بيدها ، كأنه يقودها ، ثم يتركان المركبةويدخلان في خفة الهواء ورقة النسيم من النافذة الى داخل البيت عند التمثال (42) . وعندها طلب منها بجماليون أن تمنح زوجته حرارة الحياة وقوة الحب (43) . ويعيش مع زوجه (التمثال الذي منح الحياة والحب ، ولكنه لايجد السعادة ولاالحياة الهائنة . وقد وصف الإله أبولون حال بجماليون العاشق الحزين قائلا:

"- أبولون : عين ماحدث في المرة الأولى ... يقبل على جالاتيا الحية معجباً في باديء الأمر . ثم لايلبث أن يراها أقل جمالاً وكمالاً من جالاتيا العاجية . فيطالبنا بردها كما كانت ، صائحاً في وجوهنا بعين الألفاظ المشينة . فإذا أعدنا إليه عمله الفني ، هدأ لحظة ثم عاد يراه أقل جمالاً ، وكمالاً من الصورة الحية ... وهكذا دواليك ... لن يقر له قرار،ولن يطمئن

له بال ... فلا جمال الحياة يشبعه ، ولا جمال الفن يكفيه ... ولن يفتر عن ملاحقة الجمال والكمال في شتى الأوضاع والصور ، ومختلف الأشكال والأحوال ... لا ينطفيء له ظمأ إلا بانطفاء الشعاع الأخير من نفسه القلقة الحائرة من أجل ذلك يافينوس قلت لكِ كُفّي عن ذكر الهزيمة والإنتصار ... إن الحرب بيننا وبينه سجال دائماً ! ... ولن يكون الأمر غير ذلك أبداً ! ...(44) . فما ان فوت بجماليون الفرصة هذه المرة أراد فرصة أخرى قال : " لن أموت قبل أن أصنع تمثالاً هو آية الفن الحق ... إني حتى الآن لم أكن قد وضعت يدي على السر ... سر الكمال في الخلق ... لقد أضعت حياتي في الصراع ... صراع مع الفن لاستلاب مفتاحه ، وامتلاك الأسلوب ... وصراع مع ملكاتي وغرائزي ، أو القوى الداخلية التي هي نفس ... وصراع مع المصائر ، والأقدار ، أو القوى الخارجية التي هي الآلهة ... صراع طويل صمدت له، ومع هذا كله ... (كمن يكلم نفسه ...) أترى هذا الصراع كان ضرباً من العبث ؟ ! إني الآن أرى وأبصر ،وأعرف وأقدر ،لكن ... لكن ..." (45) . ويبقى هذا السؤال بلا جواب حتى نهاية المسرحية ، ولكننا مع هذا نعرف ، الجواب من فن الحكيم كله ، ومن متابعتنا هذا الفن ، إنها دائماً (الفرصة الثانية) التي يعمل الفنان على إعادة تجسدها مرات ومرات في حياته الفنية ، التي هي انعكاس في الفن لحياته الحقيقة ، ويلخص الحكيم هذا في قوله :" يخيل إليّ أن كل شخص يحمل قدره في طيات طبيعة ، فليس في كل الأحوال تهبط الأقدار من السماء على رؤوس الناس – ولكنها تصعد أحياناً من طبيعة نفوسهم – بل إن تصرفات الإنسان أمام الأحداث هي في الغالب صورة من طبعه ونفسه ! ... " (46) .

وقد اتخذ الحكيم لمنظومته الفنية هذه طريق الأساطير ، فاختار (إيزيس) و(أوزوريس) ،و(هورس)،و(فينوس)،و(أبولون) وغيرهم ، وهو يعرض وقائع الاسطورة ويعيد صياغتها ؛ ليقدم قضيته من واقع الحياة التي لاتحتفظ من الاسطورة الابعض دلالتها ؛ لأن الحكيم يتردد بين الفن والحياة ، ونحن في كل ما يصنع(الحكيم)نقف باحترام بإزاء عبقريته وقدرته على مايريد من رؤى ، ودلالات على نحو فني واقعي ،(أو يتقرب من ذلك). وقد عمد النقاد الى تفسير ماعرضه الحكيم (بعد أن عدوها رموزاً تحتاج الى شرح وتأويل). قال الدكتور محمد مندور :" وهو لا يريد أن يرى في ايزيس إلهة خرافية تحمل من نسر يرمز لروح أوزوريس على نحو ماترمز

الحمامة لروح القدس في المسيحية . بل يريد ان يجعل منها المرأة المصرية كما كانت في عهد الفراعنة وكما لاتزال حتى اليوم ، على نحو ما أوضح في " عودة الروح " حيث نرى باش مهندس الري يجمع الأدلة والبراهين ليثبت أن مصر القديمة لم تمت ، بل لاتزال حية في مصر الجديدة . وعلى أساس هذا الفهم لم يعد هناك مجال لأن نسأل توفيق الحكيم لماذا جعل من النقاب الذي ترتديه إيزيس مجرد حجاب تستتر به بدلا من رمز للأسرار التي كانت تحتويها إيزيس في الأسطورة القديمة " (47) . وتبدو لنا واضحة حياة الحكيم الفنية عندما نقرأ (زهرة العمر) وهي رسائل حقيقيةأرسلها الى صديقه الفرنسي أندريه. ويبدو فيها مفهومه للفن والحياة ، والموت ، والبعث . والرسائل مهمة في نظر الناقد لانه يعي تماماً انها بخط الفنان والمبدع ، ولهذا فهي اقرب شيءالى حقيقة دواخله ،وهي أساس دراسة فن أي فنان وإن الفنان العبقري المدرك لابداعه يعي هذه الأهمية ، والحكيم هو فنان مدرك لهذا الأمر قال في مقدمة كتاب جمع فيه رسائل كثيرة أرسلها الى أحد معارفه ، أو أرسلها أحد معارفه له :" هذا الكتاب هو في حقيقة أمره تاريخ رسائل ، ووثائق وجدتـــها عندي بين أوراق أخرى مهملة .وهي ليست كل ما كان عندي من رسائل ووثائق ضاعت مع الزمن ... وليست أدري ما الذي أبقى هذه ، وأضاع تلك ؟ إلا أن تكون أعمار الجماد كأعمار الأحياء لا نعرف لها قانوناً يحدد بقاءها وضياعها "(48) .

ففي زهرة العمر نجد أن الحكيم يبدأ رسائله الى صديقه بحكمة مفادها أن الشقاء ليس هو البكاء ، وان السعادة ليست الضحك ، لأنه يخاف من كثرة البكاء طوال النهار فتصبح دموعه نهراً يغرقه ،فهو شخص ضائع مهزوم في كل شيء ، حتى في الحب ، وان كان يدعي غير ذلك ، ويعلل هذا كله بالضعف الانساني الذي يولد المشاعر الإنسانية العظيمة كالخوف والفزع والحب والكره والطمع وغيرها كثير . ولكن هذا الضعف ليس عتيباً فنيا بل هو صفة إنسانية يجب ان يتعايش معها الإنسان والا صارت حياته مستحيلة ، قال الحكيم:"كل شيء حولي يهدمني هدماً "(49). والحق ان الحكيم يوضح هذا الأمر صريحاً في شيء اشبه ما يكون بخطاب سياسي يوجهه الى من يهمه الأمر على لسان البطل في(شجرة الحكم):

"... في عقيدتي أن كلّ مواطن يرى رأياً فيه صلاح لبلاده ،ويكتمه خوفا ، أو جنبا ، أو ايثارا لراحة النفس ، والبدن ، انما هو رجل

مذنب في حق بلاده وضميره ؛ لذلك لم أحجم عن إبداء رأيي في النظام البرلماني الحاضر ، باعتباري مواطناً له حق الكلام ، ومازلت مصراً على قولي إنه في حاجة كبرى الى الإصلاح ، ومازلت على استعداد لتحمل المتاعب ، في سبيل عرض رأيي صريحاً مجرداً أمام الجميع!..."(50).

عرض هذا الرأي ثم اتبعه بعنوان داخلي في الكتاب هو(شجرة الحكم في الآخرة – في الدنيا) . وفي الآخرة جنة الخلد بأشجارها وأثمارها وصورها وقطوفها الدانية (51) . فمن يحاول ان يعيد الكرة سيجد أنه بعد تصحيح المسار سيجد جنة الخلد في الارض حاضرة امامه لا في السماء ،وبهذا امتلك الانسان فرصة ثانية ، ما كان لغيره ان يمتلكها ، وهو قد استغلها على الوجه الامثل ؛ لهذا استحق الحياة بكل ما للكلمة من معاني السمو والرقي . وبهذا يكون الحكيم قد قدم فروضاً ذهنية تصور تجرده من قوانين الحياة الآدمية ، هذا التصور ظنه سلماً يستطيع به الرقي الى مراقي الفن العليا ، وانطلاقاً من الرؤية الذهنية ، لذا ظهر ان كل شيء عنده باطل ، ماعدا التحليق المترفع عن جيف البشر ووحلهم ، لهذا وجد نفسه مضطراً الى البحث عن معين لفنه لا في الحياة الواقعية ، وانما في خيالاته ، وهيماناته ، ومتاهاته العقلية (52) .

ونشعر بهذا المعين في (شهرزاد) التي افرغ فيها حبه للفن والاساطير والتغيير:

" – الوزير : إن عقلي يقصر عن إدراك ماتفعلين ... لماذا تركت الملك يذهب الى منزل الساحر ، وأنت تعلمين أنه ذاهب لإزهاق روح ... أنسيت يامولاتي أن اليوم عيد العذارى ، وأنهن يقمن هذا العيد تقديساً لسرك الذي حقن دماءهن ، وبعث هذا الرجل من بين اشلائهن ؟ " (53) .

فالرجل (شهرزاد) هو الانسان الحائر ، وشهرزاد هي طريق الخلاص ، وماحصل في الليالي الالف والواحدة هو الخلاص ، وهو ما أراده الحكيم وبناء على ماسبق نقول إن الحكيم عاش حياة كانت أقرب الى المسرح منها الى كونها حقيقية واقعة ، فهو يعيش في الغربة حياة مزدوجة بين الفن الذي امتلك روحه ، وفكره والقانون الذي كان جواز سفره الى الخارج ليرضي والديه ؛ لذا كان دائم البحث عن طريق الى الفكر الفلسفي الغربي ، ولهذا عاش تناقضاً غريباً على نفسه بين حضارة الشرق ، وحضارة الغرب ،وعندما أدرك الفرق في دواخل نفسه ، كانت الفرصة قد فاتت ، وعاد

الحكيم الى بلاده حيث إلتحم مع أرض الواقع المصري ، ولكن هل فاتت الفرصة ؟ عندها وقف الحكيم متسائلا ، والحق أن الفرصة لم تفت على الحكيم ؛ لأنه فنان يمتلك قدراً كبيراً من الابداع والعبقرية أهلاه لأن يعيد صياغة الواقع فناً خالداً خلود الحياة التي أراد أن يحياها مدة تفوق عدد سني حياته القصيرة التي مهما طالت ستأتي يوماً نهايتها المحتومة (الموت) . ولكننا كلما قرأنا شيئاً من أدب توفيق الحكيم نجده قد عاد الى الحياة ، وأعاد تمثيلها ، ومنحنا فرصة ثانية للبدء من جديد في كل مجالات الحياة . والحكيم في إبداعه الأدبي يجعلنا نعيش الوهم داخل الوهم ، والخيال داخل الخيال ، فنحن عندما ندخل عالمه نعرف سلفاً أننا سندخل عالم الوهم ، ثم يعود مرة أخرى ليعيد لنا تشكيل هذا الوهم وبهذا نشعر أننا أصبحنا في عالم نعرفه من قبل كأنه عالمنا الحقيقي .

هوامش البحث

1- ينظر مسرح توفيق الحكيم ، د . محمد مندور ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ط 3،بلا .ت : 9-12 . وينظر النثر الفني في نماذجه وتطوره لعصري النهضة والحديث ، د. علي شلق ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1974 : 308 ، وينظر مقالة عنوانها (توفيق الحكيم وانتاجه الأدبي) يلي مسرحية عنوانها لعبة الموت منشورة ضمن سلسلة الكتاب الفضي ، (لعبة الموت) ، توفيق الحكيم ، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، 1378 – 1959 ، 117 وما بعدها .

2 - توفيق الحكيم ، د. اسماعيل أدهم ،ود . ابراهيم ناجي ، دار سعد مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1945 : 8 .

3 - ينظر المصدر نفسه : 48 .

4- المصدر نفسه : 117 .

5- ينظر المصدر نفسه : 117.

6- المصدر نفسه :118 .

7- المصدر نفسه : 125 .

8- المصدر نفسه : 97.

9- يوميات نائب في الأرياف ، توفيق الحكيم ، المطبعة النموذجية ، مكتبة الاداب ، بلا .ت .

10- المصدر نفسه :136 .

11- الفنان ، توفيق الحكيم ، دار الكتاب الجديد ، مطابع الاهرام التجارية ، 1969 : 5-6.

12- سليمان الحكيم ، توفيق الحكيم ، المطبعة النموذجية ، مصر ، بلا . ت : 13 .

13- المصدر نفسه : 8 .

14- مدرسة المغفلين ، توفيق الحكيم ، دار الهلال، 1392 – 1972: 7.

15-المصدر نفسه : 128 .

16- المصدر نفسه : 129 .

17- المصدر نفسه : 130 .

18 - المصدر نفسه : 138 .
19- المصدر نفسه : 141 .
20- لعبة الموت ، توفيق الحكيم : 23.
21- المصدر نفسه : 113 .
22 - الطعام لكل فم ، توفيق الحكيم ، دار مصر للطباعة ، 1977 :64.
23 - المصدر نفسه : 83.
24- المصدر نفسه : 117 .
25- المصدر نفسه : 141 .
26 - المصدر نفسه : 161 .
27 - المصدر نفسه : 165.
28- المصدر نفسه : 181 .
29- براكسا او مشكلة الحكم ، توفيق الحكيم ، مطبعة التوكل ،القاهرة – مصر ، 1939 : 129
30- دقت الساعة ، توفيق الحكيم ، الكتاب الذهبي (26) ، نادي القصة ، 1954 : 62 .
31- المصدر نفسه : 66.
32- المصدر نفسه : 69.
33- المصدر نفسه : 74 .
34- المصدر نفسه : 75 .
35- فن الادب ، توفيق الحكيم ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، 1393 – 1973 : 10 .
36- بجماليون ، توفيق الحكيم ،المطبعة النموذجية ، القاهرة – مصر : المقدمة ، 10 .
37- المصدر نفسه : المقدمة ، 12 .
38- ثورة المعتزل ، دراسة في أدب توفيق الحكيم ، غالي شكري ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة – مصر ، ط 1 ، 1966 : 254 .
39 - الصفقة ، توفيق الحكيم ، ملتزم الطبع والنشر ، مكتبة الأداب ومطبعتها ، المطبعة النموذجية ، مصر ، بلا . ت : 27.

40- التعادلية ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر ، 1955 : 114 .
41- بجماليون : 28 .
42- المصدر نفسه :34 .
43- المصدر نفسه : 41 .
44 - المصدر نفسه : 162 .
45- المصدر نفسه :164 .
46- الفنان ، توفيق الحكيم : 130 .
47- مسرح توفيق الحكيم ، د. محمد مندور : 153 وينظر عودة الروح، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر ، 1964 : 35 وما بعدها .
48- صفحات من التاريخ الأدبي لتوفيق الحكيم من واقع رسائل ووثائق ، توفيق الحكيم ، دار المعارف ، مصر ، 1975 : المقدمة ، 5 .
49- زهرة العمر ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر ، 1964 : 44 .
50- شجرة الحكم ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، المطبعة النموذجية ، القاهرة – مصر ، بلا .ت : 7.
51- المصدر نفسه : 26.
52- ينظر لعبة الحكم والواقع ، جورج طرابيشي : 23.
53- شهرزاد ، توفيق الحكيم ، مكتبة ومطبعة الآداب ، المطبعة النموذجية ، بلا.ت : 44.

مصادر البحث

- بجماليون ، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية، القاهرة – مصر،بلا. ت.
- براكسا أو مشكلة الحكم ، توفيق الحكيم ، مطبعة التوكل ، القاهرة – مصر ، 1939 .
- التعادلية ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر ، 1955.
- توفيق الحكيم ، د. اسماعيل أدهم و د . ابراهيم ناجي ، دار سعد مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1945 .

- ثورة المعتزل ، دراسة في أدب توفيق الحكيم ، غالي شكري ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة – مصر ، ط 1 ، 1966 .
- دقت الساعة ، توفيق الحكيم ، الكتاب الذهبي (26) ، نادي القصة ، 1954.
- زهرة العمر ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر، 1964.
- سليمان الحكيم ، توفيق الحكيم ، المطبعة النموذجية ، مصر ، بلا . ت.
- شجرة الحكم ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، المطبعة النموذجية ، القاهرة – مصر ، بلا . ت
- شهرزاد ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، المطبعة النموذجية، القاهرة – مصر ، بلا . ت.
- صفحات من التاريخ الأدبي ، لتوفيق الحكيم من واقع رسائل ووثائق ، توفيق الحكيم ، دار المعارف ، مصر ، 1975.
- الصفقة ، توفيق الحكيم ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، المطبعة النموذجية ، مصر ، بلا . ت .
- الطعام لكل فم ، توفيق الحكيم ، دار مصر للطباعة ، 1977.
- فن الأدب ، توفيق الحكيم ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، 1393 – 1973 .
- الفنان ، توفيق الحكيم ، دار الكتاب الجديد ، مطابع الاهرام التجارية ، 1969.
- لعبة الحكم والواقع ، دراسة في أدب توفيق الحكيم ، جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 2 ، 1979.
- لعبة الموت ، توفيق الحكيم ، سلسلة الكتاب الفضي ، الشركةالعربية للطباعة والنشر والتوزيع ، 1378 – 1959 .
- مدرسة المغفلين ، توفيق الحكيم ، دار الهلال ، 1392 – 1972 .
- مسرح توفيق الحكيم ، د . محمد مندور ، دار نهضته مصر للطبع والنشر ، ط 3 ، بلا . ت .
- النثر الفني في نماذجه وتطوره لعصري النهضته والحديث ، د . علي شلق ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، ط 2 ، 1974 .
- يوميات نائب في الأرياف ، توفيق الحكيم ، المطبعة النموذجية مكتبة الآداب ، بلا . ت .